خزائن الكتب القديمة في العراق (١)

— ٢ —

بقلم : الاستاذ كوركيس عواد

خزانة الواقدي

أبو عبدالله محمد بن عمر الواقدي أشهر من أن يعرف . فقد كان (عالماً بالمغازي والسير والفتوح واختلاف الناس في الحديث والفقه والأحكام والاخبار (٢)

كان الواقدي من أهل المدينة ، ثم انتقل الى بغداد وولي القضاء بها للمأمون بعسكر المهدي ، توفي ببغداد سنة ٢٠٧ هـ (٨٢٢ م) . وقد صنف كثيراً من الكتب النفيسة لم ينته إلينا منها إلا القليل منها .

وقد كان للواقدي خزانة كتب حافلة بآلاف التصانيف أشار اليها غير واحد من المؤرخين . فقد نقل أبو بكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد : « حدثنا محمد بن أحمد ابن يعقوب بن شيبة قال : سمعت أبي يقول : لما انتقل الواقدي من الجانب الغربي الى ههنا ، يقال انه حمل كتبه على عشرين ومائة وقر (٣)

«١» مستل من كتاب « خزائن الكتب القديمة في العراق » لكاتب المقال

«٢» الفهرست (ص ٩٨ طبعة فلوجل في ليبسك سنة ١٨٧١ م

«٣» تاريخ بغداد للخطيب (٣ : ٥) وهذا الخبر عينه نقله ياقوت الحموي في معجم الادباء (٧ : ٥٧ — ٥٨ طبعة مرجليوث)

مشيب كما استلى صدر الحسا ... م لم يرو من لبثه في القراب

نضا فاستباح حمى الملهيات ... وراع الغواني بظفر وناب

والوى بجدة أيامه ... فأصبح مقذى لعين الكعاب

تستر منه مجال السوار ... اذا ما بدا ومناط النقاب

وكنت اروق ماء الوصال ... وبحر الشبيبة طاغي العباب

ويطيل التحسر والتفجع على الشباب وسالفات عهوده ايام كان لا يزال في نضارة اهابه وغضارة عوده ويشبه تلك الايام بانفاس الشمول والشمال . لانها مسعفة بالقرب حافلة بالوصال :

وايام الشباب مساعفات ... جمعن لنا وايام الوصال

كانفاس الشمول كرعت فيها ... على ظمأ وانفاس الشمال

ويستقصر مدة الشباب ويستقل عهده ويشكو سرعة انقضائه ويشبهه بظل الطائر لأن من طبيعة الطائر الحركة الدائمة التي تمحو ظله قبل استقراره :

واها على عهد الشباب وطيبه ... والغض من ورق الشباب الناضر

واها له ما كان غير دجنة ... قلصت صبابتها كظل الطائر

سبع وعشرون اهتصرن شبيبتي ... والن عودي للزمان الكاسر

ويحيي هذا الضيف وان كان غادرا :

واها وهل يغني الفتى ... بكاء عين لأثر

يا حبذا ضيفك من ... مفارق وان غدر

ومن يك ناسيا عهدا فاني ... لعهدك يا شبابي غير ناسي

فان العيش بعدك غير عيش ... وان الناس بعدك غير ناس

ويأسف على سواد محبوب يمر بالرأس مر الغمام ، قصير الليث قليل المقام ، فاذا علقت شرارة بشعرة منه اشتعل سائره شيبا :

سواد يعجل زور البياض ... علوق الضرام برأس الذبال

ومر على الرأس مر الغمام ... قليل المقام سريع الزيال

ويتخيل الشباب طريدة للشيب الجاد في اثره فيود لو كان ذلك الطارد العجل فداء طريدته :

ولى الشباب وهذا الشيب يطرده ... يفدي الطريدة ذاك الطارد العجل

(للبحث بقية) عز الدين آل ياسين

وحكى ابن النديم بهذا الصدد خبراً طريفاً هذا نصه : قرأت بخط عتيق قال : خلف الواقدي بعد وفاته ستمائة قمطر ، كل قمطر منها حمل رجلين . وكان له غلامان عملوا كان يكتبان الليل والنهار . وقبل ذلك بيع له كتب بألفي دينار (٤)

خزانة اسحق بن ابراهيم الموصلي

أبو محمد اسحق بن ابراهيم بن ميمون الموصلي ، شاعر أديب عالم اخباري متمهر في علوم كثيرة ، وهو أعلم أهل زمانه بالغناء ، وأضربهم بالعود وبأكثر آلات الطرب . كان مقدماً عند خلفاء بني العباس : فنادم الرشيد والمأمون والواثق . وكان المأمون يقول : (لولا ما سبق لاسحق على ألسنة الناس واشتهر به عندهم من الغناء ، لوليته القضاء . فما أعرف مثله ثقة وصدقاً وعفة وفقهاً » (٥) . وقال فيه الواثق : (٦) ما غناني اسحق قط ، إلا ظننت انه قد زيد في ملكي ... وان إسحق لنعمة من نعم الملك التي لم يحظ بمثلها . ولو ان العمر والشباب والنشاط مما يشترى ، لاشتريتهن له بشطر ملكي » (٧)

مات اسحق ببغداد سنة ٢٣٥ هـ (٨٤٩ م)

ألف إسحق كتباً كثيرة ، ذكر منها ابن النديم (٨) نحواً من أربعين كتاباً ضاعت كلها فيما نعهد . ويؤخذ من عنواناتها ان بحوثها تدور على الغناء والشرب ومجالسة الخلفاء ومنادمتهم ، وأخبار الشعراء والمغنين والقيان ، وعلى ما كان يدور بينهم من نوادر وأحاديث وشؤون .

وقد جمع اسحق لنفسه خزانة كتب حافلة ، فنقل الخطيب البغدادي (٩) وياقوت الحموي (١٠) قول الأصمعي (خرجت مع الرشيد الى الرقة ، فلقيت اسحق الموصلي بها فقلت له : هل حملت شيئاً من كتبك ؟ فقال : حملت ما خف : فقلت : كم مقداره ؟ فقال ثمانية عشر صندوقاً . فعجبت وقلت : اذا كان هذا ما خف فكم يكون ما ثقل ؟ فقال : أضعاف ذلك » .

وكفى بهذا النص دليلا على عظم هذه الخزانة وتعلق صاحبها بها في الحل والترحال !

وذكر ابن خلكان في ترجمته ، انه « كان كثير الكتب حتى قال أبو العباس ثعلب (١١) : رأيت لاسحق الموصلي ألف جزء من لغات العرب وكلها سماعه . وما رأيت اللغة في منزل أحد قط أكثر منها في منزل اسحق ، ثم في منزل ابن الأعرابي (١٢)

خزانة الجاحظ

لم يشتهر من أدباء العربية أحد اشتهار أبي عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ ، المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ٨٦٨ م

فلقد أجمع مؤرخو الأدب العربي على إمامته في هذا الباب وتقدمه على كثير ممن سواه . وفي هذا القدر من تآليفه التي انتهت الينا خير دليل على صحة هذا القول . فكتب الجاحظ من أثمن ما وصل الينا من تراث الأقدمين ، وهذا شيء يكاد لا يختلف فيه اثنان .

والجاحظ الذي يعد « دائرة معارف » عصره ، كان من محبي الكتب المولعين بمطالعتها ، فنقل بعض الكتبة « ... وحدث أبو هفان ، قال : لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فانه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى انه

---

(٤) الفهرست (ص ٩٨)

(٥) الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني (٥ : ٢٧٣ طبعة دار الكتب المصرية) .

(٦) نسب هذا القول في وفيات الأعيان (١ : ٩٢ طبعة بولاق ١٢٧٥ هـ) الى المعتصم

(٧) الأغاني (٥ : ٢٨٥ - ٢٨٦) .

« ٨ الفهرست ص ١٤١

(٩) تاريخ بغداد ٦ : ٣٤٠

(١٠) معجم الأدباء ٢ : ١٩٨ - ١٩٩

« ١١ » وهذا كان جماعة للكتب ايضا . وقد تكلمنا على خزانته في مكان آخر من هذا الكتاب

« ١٢ » وفيات الأعيان (١ : ٩٢) .

كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر(١٣)

ولم يكن الجاحظ ليكتري الكتب ويطالعها حسب بل كان يعنى باقتنائها واستجماعها ، حتى صار له منها خزانة ، نقل بعض المؤرخين انها أدت الى كارثة موته فقد « روي ان موته كان بوقوع مجلدات عليه ، وكان من عادته أن يضعها قائمة كالحائط ، محيطة به ، وهو جالس اليها ، وكان عليلا ، فسقطت عليه فقتلته في محرم هذه السنة » « ١٤ » .

خزانة ابي بكر ابن الانباري

قال ابن الجوزي في سياق ترجمته ، انه « كان من أعلم الناس بالنحو والأدب ، واكثرهم حفظاً له . وصنف كتباً كثيرة في علوم القرآن وغريب الحديث وغير ذلك » «١٥» وقد كانت وفاته في سنة ٣٢٨ هـ (٩٣٩ م) .

ويؤخذ مما سنورده من اخبار ان لأبي بكر ابن الانباري خزانة كتب . فانه لما مرض « دخل عليه اصحابه يعودونه ، فرأوا من انزعاج أبيه وقلقه عليه أمراً عظيماً فطيبوا نفسه ورجوه العافية . فقال لهم : كيف لا أقلق وانزعج لعلة من يحفظ جميع ما ترون ، واشار لهم الى حيري « ١٦ » مملوء كتباً » « ١٧ » .

«١٣» الفهرست (ص ١١٦) ومعجم الادباء (٦ : ٥٦) .

(١٤) تاريخ ابي الفداء (حوادث سنة ٢٥٥ هـ) . (٢ : ٢٣٢ طبعة ريسكي وأدلر في كوبنهاغن سنة ١٧٩٠ م ، ٢ : ٤٧ طبعة المطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ)

(١٥) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٦ : ٣١٢ طبع حيدر آباد) .

(١٦) الحيري نسبة الى الحيرة . والمراد به ههنا ضرب من البناء أشبه ما يكون بالثوب الحيري ذي الكمين . وللوقوف على تفصيل واف في هذا الموضوع ، راجع مقالة (الحيري بكمين) لأخي ميخائيل عواد ، المنشورة في مجلة الثقافة (القاهرة ١٩٤٢ ، الاعداد ١٩٨ و١٩٩ و٢٠٠) .

(١٧) المنتظم (٦ : ٣١٢) .

وهذا الخبر ساقه ياقوت الحموي والسيوطي في ترجمته باختلاف وهو انهما بدلا من عبارة « حيري مملوء كتباً » كتباً (خزانة مملوءة كتباً) (١٨) .

وتأييداً لسعة محفوظات ابي بكر هذا ، نورد ما نقله ياقوت عن ابي علي القالي ، لصلته بكبر خزانة كتبه : كان ابو بكر ابن الانباري يحفظ ثلاثمائة الف بيت شاهد في القرآن ، وكان يحفظ مائة وعشرين تفسيراً باسانيدها وقال له ابو الحسن العروضي : قد اكثر الناس في حفظك فكم تحفظ ؟ فقال : ثلاثة عشر صندوقا . . . . . وقال محمد ابن جعفر التميمي : اما ابو بكر ابن الانباري ، فما رأينا أحفظ منه ولا اغزر منه علماً . وكان يحفظ ثلاثة عشر صندوقا ، وهذا مما لم يحفظه أحد قبله ولا بعده) (١٩) .

خزانة علي بن احمد العمراني

والعمراني هذا من اهل الموصل . وصفه ابن النديم بقوله انه « كان فاضلا ، جماعة للكتب ، يقصده الناس من المواضع البعيدة للقراءة عليه » « ٢٠ » وكانت وفاته سنة ٣٤٤ هـ « ٩٥٥ م » وله كتاب « شرح كتاب الجبر والمقابلة لأبي كامل » .

وزاد القفطي على ما ذكره ابن النديم ، ان العمراني كان عالماً بالحساب والهندسة ، وان كتبه هي شرح كتاب الجبر والمقابلة لابي كامل شجاع بن اسلم الحاسب المصري ، وكتاب الاختيارات عدة كتب في النجوم وما يتعلق بها (٢١)

وذكر ابن النديم في موطن آخر من كتابه ، ان المقالة العاشرة من اصول الهندسة لأقليدس بنقل ابي عثمان

---

(١٨) معجم الادباء (٦ : ٧٣) وبغية الوعاة للسيوطي (ص ٩١) .

«١٩» معجم الادباء « ٦ : ٧٣ – ٧٤ » . وانظر : نزهة الالباء في طبقات الادباء (ص ٣٣٤) وبغية الوعاة [ص ٩١]

«٢٠» الفهرست « ص ٢٨٣ » .

«٢١» إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي [ص ٢٣٣ طبعة ليبرت في ليبسك سنة ١٩٠٣] .